تأملات في

آية الإحسان

من تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان

إعداد فضيلة الشيخ

محمد بن علي العرفج

غفر الله له ولوالديه وذريته وزوجه ولسائر المسلمين

تأملات في الإحسان

من تيسير الكريم الرحمن

في تفسير كلام المنان

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العرفج، محمد بن علي

تأملات في الإحسان من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان./ محمد بن علي العرفج. – الرياض، ١٤٣٢هـ

١٠٩ ص ، .. سم

ردمك:

١ – ..... ٢ – ..... أ. .....

ديوي ..../١٤٣٢

رقم الإيداع:

ردمك:

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ – ٢٠١١م

للتواصل مع المؤلف، وإبداء المقترحات والملحوظات، وطلب الكميات للتوزيع الخيري، من خلال العنوان الآتي:

E-mail: arfaj11@hotmail.com

تأملات في الإحسان
من تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان

جمع وإعداد

محمد بن علي العرفج

غفر الله له ولوالديه وأهله وذريته ولجميع لمسلمين

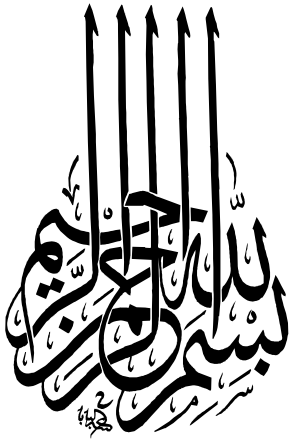
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الإحسان عمل المقربين، وغاية العابدين، ودرجة الفائزين، وعلى المسلم أن يسعى إلى درجاته وأن يسابق إلى خيراته بقدر استطاعته، ليكون سائرًا في طريق المفلحين، متَّبِعًا سنن الصالحين، ليحشر في زمرتهم تحت راية سيد المرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

والإحسان قاعدة عظيمة يقيم عليها الإسلام بناءه، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قاعدة يقيم عليها الإسلام نظمه كلها وتشريعاته وتوجيهاته، العابد في عبادته من صلاة وصيام وصدقة ونسك، القضاة في قضائهم، والتُجار في اقتصادهم، والساسة في سياستهم، والآباء والأولياء في أسرهم، فنظام المجتمعات بأسرها والحياة كلها، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ولأهمية هذا الموضوع وحاجة الناس الماسة إليه فقد رأيت أن أجمع في هذه الرسالة كل ما يخص موضوع (الإحسان) من تفسير الشيخ السعدي رحمه الله؛ لما عرف عنه من اهتمام بهذا الجانب في علمه وتعامله مع الناس، ولما في تفسيره من إيجاز، ونكت تفسيرية، ووصايا تربوية، وأسميته «**تأملات في الإحسان من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**».

وقد كان عملي فيه: جمع الآيات التي جاءت في كتاب الله تعالى وفيها ذكر (الإحسان)، أو أحد مشتقاته، وتفسير فضيلة الشيخ رحمه الله لها، ثم ترتيبها موضوعيّاً.

وقد أحلت كلام فضيلته في الحاشية إلى موضعه من التفسير معتمداً في ذلك على طبعة مؤسسة الرسالة، وتحقيق د.عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بادئاً كلام فضيلته بعبارة قال رحمه الله، أو عبارة مثلها تنبيهاً على بداية كلامه، وقد حصرت كل المنقول عنه بين قوسي تنصيص «...»، فإن احتاج الكلام لزيادة أضفتها بين معكوفين [...].

أسأل الله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من المحسنين في عباداتنا وأعمالنا وأقوالنا إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله على نبينا محمد.

❖ ❖ ❖

ترجمة الشيخ السعدي

هو الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، ولد في مدينة عنيزة في الثاني عشر من شهر الله المحرم سنة ١٣٠٧هـ، نشأ يتيم الأبوين، وكان والده من أهل العلم والصلاح، وكان إماماً في مسجد المسوكف في عنيزة.

ظهرت عليه بوادر النبوغ مبكراً، حتى أن أخاه الأكبر حمد الذي تولى رعايته كان يناديه باسم الشيخ. وعرف من حداثته بالصلاح والتقى، وأقبل على العلم بجد ونشاط وهمة وعزيمة، فحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب قبل أن يتجاوز الثانية عشرة من عمره، واشتغل بالعلم على علماء بلده والبلاد المجاورة لها ومن يرد إلى بلده من العلماء، وانقطع للعلم، وجعل كل أوقاته مشغولة في تحصيله حفظاً وفهماً ودراسة ومراجعة واستذكاراً،

حتى أدرك في صباه ما لا يدركه غيره في زمن طويل.

لم يكن مهتمًّا بالفقه الحنبلي فقط بل كان اهتم كذلك بكتب التفسير والحديث والتوحيد، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم التي فتقت ذهنه ووسعت مداركه فخرج من طور التقليد إلى طور الاجتهاد المقيد، فصار يرجح من الأقوال ما رجحه الدليل وصدقه التعليل، ومن ثم اجتهد في تطبيق بعض النصوص الكريمة على بعض مخترعات هذا العصر وحوادثه.

صرف أوقاته كلها للتعليم والإفادة والتوجيه والإرشاد، فاجتمع إليه الطلبة وأقبلوا عليه واستفادوا منه، كما قدم عليه الطلاب من البلاد المجاورة لبلده لما اشتهر به من سعة العلم وحسن الإفادة وكريم الخلق ولطف العشرة.

ولما بلغ أشده ونضج علمه ورسخ قدمه شرع في التأليف،

ففسر القرآن الكريم وبين أصول التفسير وشرح جوامع الكلام النبوي ووضح أنواع التوحيد وأقسامه وهذب مسائل الفقه، وجمع أشتاتها، ورد على الملاحدة والزنادقة والمخالفين، وبين محاسن الإسلام، كل ذلك في كتب ورسائل طبعت ووزعت ونفع الله بها.

فكان رَحِمَهُ اللَّهُ مرجع بلاده وعمدتهم في جميع أحوالهم وشئونهم، فهو مدرس الطلاب، وواعظ العامة وإمام الجامع وخطيبه، ومفتي البلاد وكاتب الوثائق وحرر الأوقاف والوصايا وعاقد الأنكحة ومستشارهم في كل ما يلمهم.

فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرا.

تعريف الإحسان

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريف الإحسان[1]: «الإحسان [في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]: «**هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»[2]، وفي حق المخلوقين: بذل النفع الديني والدنيوي لهم».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «وللإحسان ضدان: الإساءة وهي أعظم جرمًا، وترك الإحسان بدون إساءة وهذا محرم لكن لا يجب أن يُلْحَقَ بالأول».

وقد بين رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقة الإحسان في تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ**

---

(١) ص (٢٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٢٧)، رقم (٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩)، رقم (٩).

(٣) ص (٥٧).

﴿بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ (النساء: ٦٢).

فقال[1]: «﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ أي: ما قصدنا في ذلك إلاَّ الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيقَ بينهم، وهم كَذَبَةٌ في ذلك؛ فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله، ومَنْ أحسنُ من الله حكمًا لقوم يوقنون».

(١) ص (١٨٤).

الأمر بالإحسان والحث عليه

في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٥).

قال رحمه الله[1]: «يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله. وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته، وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال وهو فرض كالجهاد بالبدن. وفيها من المصالح العظيمة: الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى

(١) ص (٩٠).

توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله، لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد وتسليط للأعداء، وشدة تكالبهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك.

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أُمر به العبد إذا كان تركه موجبًا أو مقاربًا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف أو محل مسبعة أو حيات، أو يصعد شجرًا أو بنيانًا خطرًا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك.

فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة، ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة: الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها: ترك ما أمر الله به من الفرائض التي تَرْكُها هلاكٌ للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعًا من أنواع الإحسان أمر بالإحسان عمومًا فقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم، ويدخل فيه الإحسان بالجاه بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع.

ويدخل في ذلك[1]: قضاء حوائج الناس من تفريج

(١) أي في الإحسان.

كرباتهم، وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به.

ويدخل في الإحسان أيضًا: الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]، فمن اتصف بهذه الصفات كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: ٢٦)، وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

---

(١) سبق تخريجه ص (١١).

قال رحمه الله[1]: «فالعدل الذي أمر اللّه به يشملُ العدلَ في حقِّه، وفي حقِّ عباده؛ فالعدلُ في ذلك أداءُ الحقوق كاملةً موفورةً؛ بأن يؤدِّيَ العبد ما أوجب اللّه عليه من الحقوق الماليَّة والبدنيَّة والمركَّبة منهما في حقِّه وحقِّ عباده، ويعامل الخلق بالعدل التامِّ، فيؤدِّي كلُّ والٍ ما عليه تحت ولايتِهِ، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى وولاية القضاء ونواب الخليفة ونواب القاضي.

والعدل: هو ما فَرَضَه اللّه عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه.

ومن العدل في المعاملات: أن تعامِلَهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات بإيفاء جميع ما عليك؛ فلا تبخسُ لهم حقًّا، ولا تغشُّهم ولا تخدعُهم وتظلِمُهم.

فالعدل واجبٌ، والإحسان فضيلةٌ مستحبٌّ، وذلك كنفع

(١) ص (٤٤٧).

الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع، حتى يدخلَ فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخصَّ اللّه إيتاء ذي القُربى وإن كان داخلاً في العموم؛ لتأكُّد حقّهم وتعيُّن صلتهم وبرِّهم والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب؛ قريبهم وبعيدهم، لكن كلٌّ مَن كان أقربَ كان أحقَّ بالبرِّ[1].

وقوله: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ ﴾ وهو كلُّ ذنبٍ عظيم استفحشته الشرائعُ والفِطَر؛ كالشركِ باللّه، والقتل بغير حقٍّ، والزِّنا، والسرقة، والعُجب، والكِبْر، واحتقار الخلق... وغير ذلك من الفواحش، ويدخل في المنكر كلُّ ذنبٍ ومعصيةٍ متعلِّق بحقِّ اللّه تعالى، وبالبغي كلُّ عدوان على الخلق في الدِّماء

(١) سيأتي تفصيل ذلك في مسألة الإحسان إلى الأقارب من هذا الكتاب.

والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعةً لجميع المأمورات والمنهيَّات لم يبقَ شيءٌ إلاَّ دخل فيها[1].

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٥٨٣/٢): «قال الشعبي، عن بشير بن نهيك: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ ...الآية، رواه ابن جرير وقال سعيد، عن قتادة: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾، الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيء كانوا يتعايبونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها»، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها**» [أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ص (١٦) ط دار الفتح، والطبراني (١٨١/٦)، رقم (٥٩٢٨)، قال الهيثمي (١٨٨/٨): رجاله ثقات، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص (٢٧)، رقم (٣)، والحاكم (١١١/١)، رقم (١٥١)، وابن عساكر (٥/٧). والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤١/٦)، رقم (٨٠١٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (ح ١٦٢٧)].

فهذه قاعدةٌ ترجع إليها سائر الجزئيَّات؛ فـ [كلُّ مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى؛ فهي مما أمر اللّه به، وكلُّ مسألةٍ مشتملة على فحشاء، أو منكَر، أو بغي؛ فهي مما نهى اللّه عنه]؛ وبها يُعْلَمُ حُسنُ ما أمر اللّه به وقُبح ما نهى عنه، وبها يُعتبر ما عند الناس من الأقوال، وتردُّ إليها سائر الأحوال؛ فتبارَكَ مَن جعل في كلامِهِ الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان، بين جميع الأشياء؛ ولهذا قال: ﴿ **يَعِظُكُمْ** ﴾ به، أي: بما بيَّنه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرَّتكم ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ ما يعظِكُم به فتفهمونه وتعقِلونه فإنَّكم إذا تذكَّرتموه وعقلتموه؛ عملتم بمقتضاه، فسعدتُم سعادةً لا شقاوة معها».

علو مرتبة الإحسان

إنَّ غايةَ الإسلام الكبرى وتشريعاتِه العظمى هي: الإحسانُ إلى النّفس، والإحسان إلى الخلق، فبهذا الإحسان إلى النّفس والإحسان إلى الخلق تكون منازلُ النّاس عند ربهم في الدّنيا والآخرة قُربًا وبُعدًا، وبهذا الإحسان تكون منزلة الإنسان عند الخَلق قَبولاً ونُفورًا.

أولاً: علو مكانة المحسنين عند ربهم:

إن مكانة المحسنين عند الله تعلو على غيرها من المكانات، وقد بين رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (الأحزاب: ٢٩).

فقال رحمه الله[1]: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، رتَّب الأجر على وصفهنَّ بالإحسان؛ لأنَّه السبب الموجب لذلك، لا لكونهنَّ زوجاتٍ للرسول؛ فإنَّ مجرَد ذلك لا يكفي، بل لا يفيدُ شيئًا مع عدم الإحسان، فخيَّرَهُنَّ رسول ﷺ في ذلك، فاخترنَ اللّه ورسوله والدار الآخرة كلُّهن، ولم يتخلفْ منهنَّ واحدةٌ رضي اللّه عنهن».

ثانياً: علو مكانة المحسنين بين الناس:

وكذلك تعلو مكانة المحسنين بين الناس، فتتوجه إليهم الوجوه والحوائج، لما فيهم من خلق سمح وإقبال على إعانة المحتاج، ليصدق فيهم قوله ﷺ: «**إن لله عباداً اختصهم بحوائج الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون من**

(١) ص (٦٦٢ و٦٦٣).

عذاب الله»[1].

وقد بين ذلك رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (يوسف: ٣٦).

فقال رحمه الله[2]: «قولهما: ﴿ **إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾؛ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق؛ فأحسِنْ إلينا في تعبيرك لرؤيانا كما أحسنتَ إلى غيرنا، فتوسَّلا ليوسف بإحسانه».

---

(١) أخرجه الطبراني (٣٥٨/١٢)، رقم (١٣٣٣٤)، وابن عساكر (٥/٥٤). قال الهيثمي (١٩٢/٨): رواه الطبراني وضعفه، وحسن حديثه ابن عدى، وأحمد بن طارق الراوي عنه لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) ص (٣٩٨).

وكما كان إحسان يوسف هو المشجع للسجينين على طلب حاجتهم منه، كذلك كان هو المشجع لإخوته على أن يطلبوا منه حاجتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ **قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾ (يوسف: ٧٨).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ثم سلكوا معه مسلك التملُّق لعله يسمح لهم بأخيهم، فَـ ﴿ **قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا** ﴾؛ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشقُّ عليه فراقه. ﴿ **فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾: فأحْسِنْ إلينا وإلى أبينا بذلك».

(١) ص (٤٠٣).

ميادين الإحسان كما وردت في القرآن الكريم

مر بنا كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ عن تقسيم الإحسان إلى قسمين رئيسين، هما: الإحسان في عبادة الله – جل وعلا –، والإحسان إلى المخلوقين، وفيما يلي تفصيل ذلك حسب ما يتبين لنا من تفسيره رَحِمَهُ اللَّهُ لآيات لكلام المنان.

أولاً: الإحسان مع الله:

عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي الهدف من خلق الناس جميعا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)، لذا أرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرسل، وأنزل الكتب ليعرف الناس الطريق المستقيم لعبادته، وإنما يستفيد بهذه الدلائل، ويتبع هذه التشريعات المحسنون.

في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف: ١٢).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «لما لم يهتدوا بهذا القرآن وفاتهم أعظم المواهب وأجل الرغائب قدحوا فيه بأنه كذب وهو الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء يعتريه الذي وقد وافق الكتب السماويَّة، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾[2] خصوصًا أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها اللّه على موسى ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ﴾؛ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل ويهتدون بها، ويحصُلُ لهم خير الدنيا والآخرة ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ للكتب السابقة، شهد

(١) ص (٧٨٠).

(٢) الكلام هنا على القرآن الكريم.

بصدِقها وصدَّقها بموافقته لها، وجَعَله اللّه ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ليسهل تناوله ويتيسر تذكُّره. ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان إن استمرُّوا على ظلمهم بالعذاب الوبيل، ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين بالثواب الجزيل في الدُّنيا والآخرة، ويذكِّر الأعمال التي ينذر عنها والأعمال التي يبشر بها».

ويمكننا تقسيم الإحسان مع الله –جل وعلا– في النقاط التالية:

١ – توحيده ﷻ:

وفي تفسير قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (البقرة: ٨٣).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان؛ فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ (النساء: ٣٦)؛ إلى آخر الآية. فقوله: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به استعصوا فلا يقبلونه إلا بالأيْمَان الغليظة والعهود الموثَّقة. ﴿ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ هذا أمرٌ بعبادة الله وحده، ونهيٌ عن الشرك به، وهذا أصل الدين فلا تُقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾

(١) ص (٥٧).

(النساء: ٣٦).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «يأمر تعالى عباده بعبادتِهِ وحدَه لا شريك له، وهو الدخول تحت رقِّ عبوديَّتِهِ والانقياد لأوامره ونواهيه محبةً وذلا وإخلاصًا له في جميع العبادات الظاهرة والباطنة؛ وينهى عن الشرك به شيئًا، لا شركًا أصغر ولا أكبر لا مَلَكًا ولا نبيًّا ولا وليًّا ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملِكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل الواجبُ المتعيِّن إخلاصُ العبادة لمن له الكمالُ المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يَشْرَكُه ولا يعينُهُ عليه أحدٌ».

٢ – الاستسلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

في تفسير قوله تعالى: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**

(١) ص (١٧٨).

﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (البقرة: ١١٢).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ذَكَر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس بأمانيكم ودعاويكم، ولكن ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: أخلص لله أعماله متوجهًا إليه بقلبه ﴿وَهُوَ﴾ مع إخلاصه ﴿مُحۡسِنٞ﴾ في عبادة ربه بأن عَبَدَه بشرعه فأولئك هم أهل الجنة وحدهم، ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، فحصل لهم المرغوب ونجوا من المرهوب، ويفهم منها أن من ليس كذلك فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول».

(١) ص (٦٣).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (النساء: ١٢٥).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أي: لا أحد أحسنُ من دين مَن جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلامُ الوجه للّه الدالُّ على استسلام القلب، وتوجُّهه وإنابته وإخلاصه وتوجُّه الوجه وسائر الأعضاء للّه؛ ﴿ وَهُوَ ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿ مُحْسِنٌ ﴾ أي: متَّبع لشريعة اللّه التي أرسل اللّه بها رسله وأنزل كتبه وجعلها طريقًا لخواصِّ خلقه وأتباعهم؛ ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي: دينه وشرعه، ﴿ حَنِيفًا ۗ ﴾ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجُّه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

(١) ص (٢٠٦).

والخُلَّةُ أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبَّة من اللّه؛ فهي لعموم المؤمنين، وإنَّما اتَّخذ اللّه إبراهيم خليلاً؛ لأنَّه وفَّى بما أمر به، وقام بما ابتُلِيَ به، فجعله اللّه إمامًا للناس، واتَّخذه خليلًا، ونوَّه بذكرِهِ في العالمين».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ** ﴾ (لقمان: ٢٢).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾ أي: يخضعُ له وينقادُ له بفعل الشرائع مخلصًا له دينَه، ﴿ **وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ في ذلك الإسلام؛ بأن كان عملُه مشروعًا، قد اتَّبع فيه الرسول ﷺ،

(١) ص (٦٥٠).

أو: ومن يسلمْ وجهَه إلى اللّه بفعل جميع العباداتِ وهو محسنٌ فيها؛ بأن يعبدَ اللّه كأنَّه يراه؛ فإنْ لم يكنْ يراه فإنَّه يراه. أو: ومَنْ يسلمْ وجهَه إلى اللّه بالقيام بحقوقه وهو محسن إلى عباد اللّه قائم بحقوقهم؛ والمعاني متلازمةٌ، لا فرق بينها إلاَّ من جهة اختلاف مورد اللفظتين، وإلاَّ فكلُّها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين على وجه تُقبل به وتَكْمل؛ فمن فعل ذلك ﴿ **فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ** ﴾ أي: بالعروة التي مَنْ تمسَّكَ بها؛ توثَّق ونجا وسلم من الهلاك وفاز بكلِّ خير.

ومَنْ لم يُسلم وجهه للّه أو: لم يحسِنْ؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسكْ بالعروة الوثقى؛ لم يكنْ ثَمَّ إلاَّ الهلاك والبوار؛ ﴿ **وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ** ﴾ أي: رجوعُها وموئلُها ومنتهاها فيحكم في عباده ويجازيهم بما آلتْ إليه أعمالُهم ووصلت إليه عواقِبُهم، فليستعدُّوا لذلك الأمر».

٣ – الاتباع بالحسنى:

في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ (التوبة: ١٠٠).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ هم الذين سبقوا هذه الأمة وبدروها للإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله. ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ (الحشر: ٨). ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلْأَنصَارِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩).

---

(١) ص (٣٥٠).

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ (التوبة: ١٠٠) بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم وحصل لهم نهاية المدح وأفضل الكرامات من الله.

﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ رضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ الجارية، التي تساق إلى سقي الجنان والحدائق الزاهية الزاهرة والرياض الفاخرة.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ لا يبغون عنها حولاً ولا يطلبون منها بدلاً؛ لأنهم مهما تمنوه أدركوه ومهما أرادوه وجدوه.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي حصل لهم فيه كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور».

٤ – التقوى والصبر:

في تفسير قوله تعالى: ﴿ **قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾ (يوسف: ٩٠).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «فعرفوا[(٢)] أن الذي خاطبهم هو يوسفُ، فقالوا: ﴿ **قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ** ﴾ بالإيمان والتقوى والتمكين في الدُّنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، فَـ ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ** ﴾ أي: يتَّقي فعل ما حرَّم اللّه ويصبر على الآلام والمصائب وعلى الأوامر بامتثالها. ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾: فإنَّ هذا من

---

(١) ص (٤٠٤).

(٢) هم إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الإحسان واللّه لا يُضيعُ أجرَ من أحسنَ عملاً».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الحج: ٣٧).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينالُ اللّهَ من لحومها ولا دمائها شيءٌ؛ لكونه الغنيَّ الحميد، وإنَّما ينالُه الإخلاصُ فيها والاحتسابُ والنيَّة الصالحةُ، ولهذا قال: ﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾، ففي هذا حثٌّ وترغيبٌ على الإخلاص في النحر، وأن يكونَ القصدُ وجهَ اللّه وحدَه؛ لا فخرًا ولا رياءً ولا سمعةً ولا مجرَّد عادةٍ.

(١) ص (٥٣٩).

وهكذا سائر العبادات إن لم يقترِنْ بها الإخلاص وتقوى اللّه؛ كانتْ كالقُشورِ الذي لا لبَّ فيه والجسدِ الذي لا روح فيه، ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: تعظّموه وتُجِلُّوه، ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: مقابلةً لهدايته إيَّاكم؛ فإنَّه يستحقُّ أكمل الثناء وأجلَّ الحمد وأعلى التعظيم، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بعبادة اللّه؛ بأنْ يعبُدوا اللّه كأنَّهم يرونَه؛ فإنْ لم يصلوا إلى هذه الدرجة؛ فليعْبُدوه معتقدينَ وقتَ عبادتِهم اطِّلاعَه عليهم ورؤيته إيَّاهم، والمحسنين لعبادِ اللّه بجميع وجوه الإحسان؛ من نفع مال أو علم أو جاه أو نُصح أو أمر بمعروفٍ أو نهي عن منكرٍ أو كلمةٍ طيِّبةٍ ونحو ذلك.

فالمحسِنونَ لهم البشارةُ من اللّه بسعادة الدُّنيا والآخرة، وسَيُحْسِنُ اللّه إليهم كما أحْسَنوا في عبادته ولعباده».

ثانيا: الإحسان مع الخلق:

مِن أعظم الإحسان إلى الخلق معاملتهم بمقتضى الشرع الحنيف، بالوفاء والصّدق والعدل والرّحمة والتواضع والصّبر والاحتمال والقول الحسن، وأن تعاملَهم بما تحبّ أن يعاملوك به، وأن تؤدي حقوقهم التي أوجبها لهم الله ﷻ، ونبيه ﷺ.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ (البقرة: ٨٣).

قال رحمه الله[1]: «بعد ما أمر بعبادتِهِ والقيام بحقِّه أمر بالقيام بحقوق العبادِ الأقرب فالأقرب».

---

(١) ص (٥٧).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

قال رحمه الله[1]: «﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد اللّه، ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ عليك بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالتكبُّر والعمل بمعاصي اللّه والاشتغال بالنِّعَم عن المنعم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بل يعاقِبُهم على ذلك أشدَّ العقوبة».

قلت: ومقتضى البلاغة في مقابلة الأمر بالإحسان والنهي عن الفساد يؤدي إلى أن يكون الإنسان بين أمرين إمّا أن يكون

(١) ص (٦٢٣).

محسنًا أو يكون مفسدًا، وهذا يعني أنه لا يكفي الإنسان أن يكف سوءه عن عباد الله ليكون من المحسنين.

- **الإحسان إلى الوالدين:**

تكرر قوله ﷻ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ حيث جاء هذا الأمر في أربع سور في القرآن الكريم، وهي كالتالي:

الأول: سورة البقرة الآية ٨٣: وقال ﵀ في تفسيرها[1]: «أي: أحسنوا بالوالدين إحسانا، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة، لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده. وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرما، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم،

(١) ص (٥٧).

لكن لا يجب أن يلحق بالأول».

الثاني: سورة النساء الآية ٣٦: وقال رحمه الله في تفسيرها[١]: «أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف، والفعل الجميل، بطاعة أمرهما، واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان، الإساءةُ وعدمُ الإحسان. وكلاهما منهي عنه».

الثالث: سورة الأنعام الآية ١٥١: وقال رحمه الله في تفسيرها[٢]: «من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق».

---

(١) ص (١٧٧).

(٢) ص (٢٧٩).

الرابع: سورة الإسراء الآية ٢٣: قال تعالى: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** ﴾ (الإسراء: ٢٣).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿ **وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا** ﴾ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر. ﴿ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا** ﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن الذي تضعف فيه قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف، ﴿ **فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ** ﴾، وهذا

(١) ص (٤٥٦).

أدنى مراتب الأذى نبه على ما سواه والمعنى لا تؤذهما أدنى أذية. ﴿ **وَلَا تَنْهَرْهُمَا** ﴾ أي: تزجرهما وتتكلم كلامًا خشنًا، ﴿ **وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** ﴾ بلفظٍ يُحبّانه وتأدب وتلطف معهما بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما وتطمئن به نفوسهما وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان».

وفي تفسير قوله: ﴿ **وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٨).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أي: وأمرنا الإنسان، ووصيناه بوالديه حُسنًا، أي: ببرهما والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظَ على ذلك ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله،

(١) ص (٦٢٧).

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾، وليس لأحدٍ علمٌ بصحَّة الشرك باللّه، وهذا تعظيمٌ لأمر الشرك.

﴿ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فأجازيكم بأعمالكم؛ فبرُّوا والديكم، وقدِّموا طاعتهما إلاَّ على طاعة اللّه ورسوله؛ فإنَّها مقدَّمة على كل شيء».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴾ (الأحقاف: ١٥).

قال رحمه الله[1]: «هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصَّى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف والكلام اللين وبَذْل المال والنفقة وغير ذلك من

(١) ص (٧٨١).

وجوه الإحسان.

ثم نبَّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحمَّلته الأمُّ من ولدها، وما قاسته من المكاره وقت حَمْلِها، ثم مشقَّة ولادتها المشقَّة الكبيرة، ثم مشقَّة الرضاع وخدمة الحضانة. وليست المذكوراتُ مدةً يسيرة ساعة أو ساعتين وإنما ذلك أي ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ﴾ مدة طويلة قدرها ﴿ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴾ للحمل تسعة أشهر ونحوها والباقي للرضاع وهذا الغالب.

ويستدلُّ بهذه الآية مع قوله: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ (البقرة: ٢٣٣) أنَّ أقلَّ مدَّة الحمل ستة أشهر؛ لأنَّ مدَّة الرضاع – وهي سنتان – إذا سقطت[1] منها السنتان؛ بقي ستة أشهر مدة للحمل».

(١) أي من الثلاثين شهراً.

- **الإحسان لذوي القربى واليتامى والمساكين والجار:**

حرصت الشريعة الإسلامية على شمول المودة بين جميع فئات الأمة، ليكونوا كالجسد الواحد، فكما أمر الله ﷻ بالإحسان للوالدين، أمر أيضا بالإحسان للأرحام، واليتامى والمساكين، فقال ﷻ: ﴿ **وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ** ﴾ (النساء: ٣٦).

وقال رحمه الله في تفسيرها[1]: «﴿ **وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ** ﴾ أيضًا إحسانًا، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قَرُبوا أو بَعُدوا، بأن يُحْسِنَ إليهم بالقول والفعل، وأنْ لا يقطعَ برحمه بقولِهِ أو فعلِهِ.

(١) ص (١٧٧).

﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ أي: الذين فُقِدَ آباؤهم وهم صغارٌ، فلهم حقٌّ على المسلمين، سواءٌ كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم وبرِّهم وجبرِ خواطرِهم وتأديبهم وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجةُ والفقرُ، فلم يحصُلوا على كفايتهم ولا كفاية من يمونون، فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم بسدِّ خلَّتهم وبدفع فاقتهم والحضِّ على ذلك والقيام بما يمكن منه.

﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي: الجار القريب الذي له حقَّان؛ حقُّ الجوار وحقُّ القرابة؛ فله على جارِهِ حقٌّ وإحسانٌ راجعٌ إلى العرف.

﴿ وَ ﴾ كذلك ﴿ ٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب بابًا كان آكد حقًّا، فينبغي للجار أن

يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل الصاحب مطلقا، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة. فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له؛ والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته وكونه في غير وطنه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده وبإكرامه وتأنيسه.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾: أي: من الآدميين والبهائم بالقيام

بكفايتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم.

- **الإحسان مع الزوجة:**

يُسْتَحَبُّ للزوجِ تحسِينُ خُلُقه مع زَوجته والرِّفق بِهَا، وتقْديمُ ما يمْكن تَقديمُه إِلَيْها مما يؤلِّف قَلْبها، ويشمل ذلك مراحل الزواج كلها، بل والفرقة أيضا.

الإحسان في العشرة:

لقوْله تعالَى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ (النساء: ١٩)، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[1]، وقال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**

(١) أخرجه الترمذي (٧٠٩/٥)، رقم (٣٨٩٥) وقال: حسن غريب صحيح، وابن حبان (٤٨٤/٩)، رقم (٤١٧٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤١٥/٦)، رقم (٨٧١٨)، والدارمي (٢١٢/٢)، رقم=

وألطفهم بأهله»[1].

وينطلق الإحسان بين الزوجين من تقوى كل منهما لله – جل وعلا –، كما يتبين ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا** ﴾ (النساء: ١٢٨).

قال رحمه الله[2]: «﴿ **وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ** ﴾ أي: تحسنوا في

=(٢٢٦٠).

(١) أخرجه أحمد (٦/٩٩)، رقم (٢٤٧٢١)، والترمذي (٥/٩)، رقم ٢٦١٢) وقال: صحيح، وبنحوه أخرجه الحاكم (١/١١٩)، رقم (١٧٣) وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات على شرط الشيخين، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٢٣٢)، رقم (٧٩٨٣).

(٢) ص (٢٠٧).

عبادة الخالق ؛ بأن يعبدَ العبدُ ربَّه كأنه يراه ؛ فإن لم يكن يراه ؛ فإنَّه يراه، وتحسِنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان من نفع بمال أو علم أو جاهٍ أو غير ذلك. ﴿ **وَتَتَّقُواْ** ﴾ اللّه، بفعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات، أو تحسِنوا بفعل المأمور وتتَّقوا بترك المحظور ﴿ **وَتَتَّقُواْ** ﴾ قد أحاطَ به علمًا وخبرًا بظاهرِهِ وباطنِهِ فيحفظه لكم ويجازيكم عليه أتمَّ الجزاء».

الإحسان عند الطلاق :

في تفسير قوله ﷻ: ﴿ **ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

قال رحمه الله[1]: «كان الطلاق في الجاهلية – واستمر أول الإسلام – يُطلّق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارتها طلقها فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها، وصنع بها مثل ذلك أبدًا، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم. فأخبر تعالى أن ﴿ ٱلطَّلَٰقُ ﴾ أي: الذي تحصل به الرجعة ﴿ مَرَّتَانِ ﴾ ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها ويراجع رأيه في هذه المدة.

وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك؛ لأن من زاد على الثنتين فإما متجرئ على المحرم أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة، فلهذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿ بِمَعۡرُوفٍ ﴾ أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو

(١) ص (١٠٢).

الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها ﴿ بِإِحْسَٰنٍ ﴾.

ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئًا من مالها؛ لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلهذا قال: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾، وهي المخالعة بالمعروف بأن كرهت الزوجة زوجها لخُلُقِه أو خَلْقِه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه.

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع إذا وُجدت هذه الحكمة.

﴿ تِلْكَ ﴾ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي: أحكامه التي شرعها لكم وأمر بالوقوف معها، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وأي ظلم أعظم ممن اقتحم

الحلال وتعدى منه إلى الحرام فلم يسعه ما أحل الله؟!

الإحسان بعد الطلاق:

في تفسير قوله تعالى: ﴿**لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾ (البقرة: ٢٣٦).

قال رحمه الله[1]: «أي: ليس عليكم - يا معشر الأزواج - جناحٌ وإثم بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كَسرٌ لها فإنه ينجبر بالمتعة، فعليكم أن تمتعوهن بأن تعطوهن شيئًا من المال جبرًا لخواطرهن، ﴿**عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ**﴾ أي: المعسر ﴿**قَدَرُهُۥ**﴾. وهذا يرجع إلى العرف وأنه يختلف باختلاف الأحوال ولهذا قال: ﴿**مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ فهذا

(١) ص (١٠٥).

حق واجب ﴿ عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ليس لهم أن يبخسوهن. فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه فعليهم – في مقابلة ذلك – المتعة.

فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهي وأدله على حكمة شارعه ورحمته!! ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون؟!! فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر».

- **الإحسان إلى عموم الناس:**

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية ٨٣ من سورة البقرة[1]: «أمر – أي: سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بالإحسان إلى الناس عمومًا، فقال: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾، ومن القول الحسن أمرُهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام والبشاشة، وغير ذلك من

(١) ص (٥٧).

كل كلام طيب. ولما كان الإنسان لا يَسعُ بماله أُمِرَ بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (العنكبوت:٤٦)؛ ومن أدب الإنسان الذي أدَّب الله به عباده أن يكون الإنسان نزيهًا في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء ولا شاتم ولا مخاصم. بل يكون حسن الخلق واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبورًا على ما يناله من أذى الخلق امتثالاً لأمر الله ورجاءً لثوابه».

- **الإحسان إلى المسيئين:**

من خير الإنسان أنه يدعو الإنسان للإحسان للناس، ليس فقط لمن يحسنون إليه، بل إن مظلة الإحسان الإسلامية تشمل كل فرد حتى المسيئين، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ

وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

التي فسرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله[1]: «وصف – أي: سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – المتقين وأعمالهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم إن أيسروا أكثروا من النفقة. وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئًا ولو قَلَّ.

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم، وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول والفعل. هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

(١) ص (١٤٨).

﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ يدخل في العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل.

والعفو أبلغ من الكظم؛ لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله رحمة بهم وإحسانًا إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الشورى: ٤٠).

ثم ذكر حالة أعم من غيرها وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق: فسرها النبي ﷺ بقوله: «**أن**

تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك: بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبيده.

- **الإحسان في الجهاد في سبيل الله:**

ومن الآيات التي ربطت الإحسان بالجهاد في سبيل الله قوله

(١) تقدم تخريجه ص (١١).

ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (التوبة: ١٢٠).

وقد فسرها رحمه الله بقوله[1]: «يقول تعالى حاثًّا لأهل المدينة المنورة من المهاجرين والأنصار ومَن حولها من الأعراب الذين أسلموا فحسن إسلامهم: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك ولا يليق بأحوالهم، ﴿ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ في بقائها وراحتها وسكونها ﴿ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ الكريمة الزكية بل النبي أولى بالمؤمنين من

(١) ص (٣٥٥).

أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ومحبته والإيمان التام به أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: مجاعة ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ كالظفر بجيش، أو سرية، أو الغنيمة لمال ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾، لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

قال رحمه الله[1]: «﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله وجاهدوا أعداءَهم وبَذَلوا مجهودَهم في اتِّباع مرضاتِهِ، ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنَّهم محسنونَ، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالعون والنصر والهداية دلَّ هذا على أنَّ أحرى الناس بموافقة الصواب أهلُ الجهاد، وعلى أنَّ مَنْ أحسنَ فيما أُمِرَ به؛ أعانه اللّه ويَسَّرَ له أسبابَ الهداية، وعلى أنَّ مَنْ جدَّ واجتهد في طلب العلم الشرعيِّ؛ فإنَّه يحصُلُ له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبِهِ أمورٌ إلهيَّةٌ خارجةٌ عن مدرك اجتهادِهِ، وتيسَّر له أمر العلم؛ فإنَّ طلب العلم الشرعيِّ من الجهاد في سبيل اللّه، بل هو أحدُ نوعي الجهاد، الذي لا يقومُ به إلا خواصُّ الخلق، وهو الجهادُ بالقول واللسان

(١) ص (٦٣٥).

للكفار والمنافقين، والجهادُ على تعليم أمور الدين وعلى ردِّ نزاع المخالفين للحقِّ، ولو كانوا من المسلمين».

- **الإحسان في أداء الديات:**

لما شملت مظلة الإحسان في الإسلام المسيئين أكدت على ذلك في مجال القصاص، وهو مجال كثيرا ما تفوز فيه حظوظ النفس والرغبة في التشفي والانتقام، فقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ** ﴾ (البقرة: ١٧٨).

وقد فسرها رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله[1]: «يمتن تعالى على عباده المؤمنين

(١) ص (٨٤).

بأنه فرض عليهم ﴿ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ﴾ أي: المساواة فيه، وأن يُقتَل القاتل على الصفة التي قَتَل عليها المقتول إقامةَ للعدل والقسط بين العباد. وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص ويُمكّنه من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ويمنعوا الوليّ من الاقتصاص كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بين تفصيل ذلك فقال: ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ ﴾ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، ﴿ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ ﴾ والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدمًا على مفهوم قوله: ﴿ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ ﴾، مع دلالة السنة على أن الذكر يقتل بالأنثى.

وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علَوا فلا يقتلان بالولد؛

ولورود السنة بذلك[1]، مع أن في قوله: ﴿ٱلْقِصَاصُ﴾ ما يدل على أنه ليس من العدل أن يُقتَل الوالد بولده؛ ولأن في قلب الوالد من الشفقة والرحمة ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جدًّا من الولد له. وخرج من العموم أيضًا الكافر بالسنة مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصةً، وأيضًا فليس من العدل أن يُقتَل ولي الله بعدوه.

﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ ذكرًا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر لا يُقتَل بالعبد؛ لكونه غير مساوٍ له. ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أخَذَ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يُجِزْ قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

---

(١) كما في المسند (١/٤٩)، وسنن الترمذي (١٤٠٠)، وابن ماجه (٢٦٦٢).

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل وأن الدية بدل عنه ؛ فلهذا قال: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا بعض الأولياء فإنه يسقط القصاص وتجب الدية وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي. فإذا عفا عنه وجب على الولي – أي: ولي المقتول – أن يتبع القاتل ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ من غير أن يشق عليه ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يحرجه.

وعلى القاتل أَدَاءٌ ﴿ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ من غير مطل، ولا نقص، ولا إساءة فعلية، أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما يثبت في ذمم الناس للإنسان، مأمورٌ من له الحق بالاتباع بالمعروف ومن عليه الحق بالأداء بإحسان.

وفي قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ ترقيق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجانًا.

وفي قوله: ﴿أَخِيهِ﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه، وإذا عفا أولياء المقتول أو عفا بعضهم احتقن دم القاتل وصار معصومًا منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد العفو، ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم لأنه قتل مكافئًا له فيجب قتله بذلك، وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، وأن الآية تدل على أنه يتعين قتله ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء، والصحيح الأول لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره».

جزاء الإحسان

القاعدة الأساسية في معاملة المحسنين هي قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ (الرحمن: ٦٠).

وقد فسرها رحمه الله بقوله[1]: «أي: هل جزاء مَن أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيدَه إلاَّ أن يُحْسَنَ إليه بالثواب الجزيل والفوز الكبير والنعيم المقيم والعيش السليم؟ فهاتان الجنَّتان العاليتان للمقرَّبين».

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (الكهف: ٣٠).

وقال رحمه الله في تفسيرها[2]: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(١) ص (٨٣١).

(٢) ص (٤٧٥).

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: جمعوا بين الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشرِّه وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾، وإحسانُ العمل أن يريدَ العبدُ العمل لوجه اللّه متبعًا في ذلك شرع اللّه؛ فهذا العمل لا يضيِّعه اللّه ولا شيئًا منه، بل يحفظُه للعاملين، ويوفِّيهم من الأجر بحسب عملهم وفضله وإحسانه».

وفي شرح قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٥٨).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «بأعمالهم أي: جزاء عاجلاً وآجلاً». فالجزاء الموعود به المحسنون هو خير متزايد، وآجل وعاجل.

ثم فسر زمن الآجل والعاجل في تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٦١).

---

(١) ص (٥٣).

بقوله رحمه الله[1]: «من خير الدنيا والآخرة يمتثلوا هذا الأمر الإلهي بل خالفوا».

وأضاف على ذلك رحمه الله أن حدد أفضل هذا الجزاء إطلاقاً، وذلك في تفسر قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ (النجم: ٣١).

بقوله رحمه الله[2]: «يخبر تعالى أنَّه مالك الملك، المتفرِّدُ بملك الدنيا والآخرة، وأنَّ جميع ما فيهما[3] ملكٌ للّه، يتصرَّف فيهم تصرُّف الملك العظيم في عبيده ومماليكه، ينفِّذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعَه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما

(١) ص (٣٠٦).

(٢) ص (٨٢١).

(٣) في (ب): «مَنْ في السماوات والأرض».

أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ العمل من سيئات[1] الكفر فما دونَه من المعاصي، وبما عملوه من أعمال الشرِّ بالعقوبة الفظيعة[2]. ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ في عبادة اللّه، وأحسنوا إلى خلق اللّه بأنواع المنافع ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدُّنيا والآخرة. **وأكبر ذلك وأجلُّه رضا ربِّهم والفوزُ بالجنة وما فيها من النعيم**»[3].

الإنسان في جميع أحواله إن أحسن فإنما يعود عليه نفع هذا الإحسان، ففي قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء: ٧).

---

(١) في (ب): «السيئات من الكفر».

(٢) في (ب): «البليغة».

(٣) في (ب): «والفوز بنعيم الجنة».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن النفع عائد إليكم حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم؛ ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فلأنفسكم يعود الضرر كما أراكم الله من تسليط الأعداء».

- **جزاء الإحسان في الدنيا:**

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (النحل: ٣٠).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها[2]: «ذَكَرَ [تَعَالَى] ما قاله المتَّقون وأنَّهم اعترفوا وأقرُّوا بأنَّ ما أنزل اللّه نعمةٌ عظيمةٌ وخيرٌ عظيمٌ امتنَّ

(١) ص (٤٥٣).

(٢) ص (٤٣٩).

اللّه به على العباد فقبلوا تلك النعمة وتلقَّوْها بالقبول والانقياد وشكروا اللّه عليها، فعَلِموها وعملوا بها. ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ في عبادة اللّه تعالى وأحسنوا إلى عباد اللّه؛ فلهم ﴿ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ ﴾ رزقٌ واسعٌ وعيشةٌ هنيَّةٌ وطمأنينةُ قلبٍ وأمنٌ وسرورٌ.

﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ ۚ ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذَّات والمشتهيات؛ فإنَّ هذه نعيمها قليلٌ محشوٌّ بالآفات منقطع؛ بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾».

وفيما يلي نذكر الآيات المتعلقة بجزاء المحسنين في الدنيا مع تفسير فضيلة الشيخ السعدي رحمه الله لها.

١ – معية الله:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

(النحل: ١٢٨).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية[١]: «اللّه مع المتقين المحسنين بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتَّقوا الكفر والمعاصي وأحسنوا في عبادة اللّه؛ بأن عبدوا اللّه كأنَّهم يرونه، فإنْ لَم يكُونوا يَرَوْنه فإنَّه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه. نسأل اللّه أن يَجْعَلَنا من المتقين المحسنين».

٢ – قبول العمل:

في قصة الذبح قال تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات: ١٠٥).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها[٢]: «﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ﴾ أي: قد

(١) ص (٤٥٢).

(٢) ص (٧٠٥).

فعلتَ ما أُمِرْتَ به ؛ فإنَّك وطَّنْتَ نفسك على ذلك، وفعلتَ كلَّ سبب، ولم يبقَ إلاَّ إمرار السكين على حلقه. ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ في عبادتنا، المقدِّمين رضانا على شهواتِ أنفسهم».

٣ – عدم ضياع الأجر:

قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (هود: ١١٥).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قال: ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ أي: احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته وإلزامها لذلك واستمر ولا تضجر، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون. وفي هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله

(١) ص (٣٩١).

كلما وَنَتْ وَفَتَرَتْ».

٤ – رفع الجناح وحب الله:

قال تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (المائدة: ٩٣).

قال رحمه الله[1]: «لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه؛ تمنَّى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها، فأنزل اللّه هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿ **لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ** ﴾ أي: حرج وإثم ﴿ **فِيمَا طَعِمُوٓاْ** ﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما.

---

(١) ص (٢٤٣).

ولما كان نفي الجُناح يشمل المذكورات وغيرها؛ قُيِّد ذلك بقوله: ﴿ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: بشرط أنَّهم تاركون للمعاصي مؤمنون باللّه إيمانًا صحيحًا موجبًا لهم عمل الصالحات، ثم استمرُّوا على ذلك، و إلاَّ؛ فقد يتَّصف العبد بذلك في وقت دون آخر، فلا يكفي حتى يكون كذلك، حتى يأتيه أجله ويدوم على إحسانه؛ فإن الله يحبُّ المحسنين في عبادة الخالق المحسنين في نفع العبيد.

ويدخل في هذه الآية الكريمة مَنْ طَعِمَ المحرَّم أو فعل غيره بعد التحريم ثم اعترف بذنبه، وتاب إلى اللّه، واتَّقى، وآمن وعمل صالحًا؛ فإنَّ اللّه يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك».

وفي قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ٩١).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ في أبدانهم وأبصارهم الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ وهذا شامل لجميع أنواع المرض التي[2] لا يقدر صاحبه على الخروج والجهاد من: عرج، وعمى، وحمى ذات الجنب، والفالج، وغير ذلك؛ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي: لا يجدون زادًا ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج بشرط أن ينصحوا الله ورسوله بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

---

(١) ص (٣٤٧).

(٢) كذا في النسختين.

﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيها تبعة فإنهم – بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد – أسقطوا توجه اللوم عليهم. وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره في نفسه، أو في ماله ونحو ذلك ثم ترتب على إحسانه نقص، أو تلف أنه غير ضامن؛ لأنه محسن ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن – وهو المسيء – كالمفرط أن عليه الضمان ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ومن مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين».

٥ – القرب من رحمة الله – جل وعلا –:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ

﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦).

وقد فسرها رحمه الله بقوله[1]: «﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بعمل المعاصي ﴿ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ بالطاعات؛ فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق؛ كما قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ (الروم: ٤١)، كما أنَّ الطاعات تصلُحُ بها الأخلاق والأعمال والأرزاق وأحوال الدُّنيا والآخرة.

﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ ﴾ أي: خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، طمعًا في قبولها وخوفًا من ردِّها، لا دعاء عبد مدلٍّ على ربه، قد أعجبته نفسه، ونزَّل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاهٍ.

---

(١) ص (٢٩١).

وحاصل ما ذكر اللّه من آداب الدعاء: الإخلاصُ فيه للّه وحده؛ لأنَّ ذلك يتضمَّنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلبُ خائفًا طامعًا لا غافلاً ولا آمنًا ولا غير مبالٍ بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء؛ فإن الإحسان في كل عبادة بَذْلُ الجهد فيها وأداؤها كاملةً لا نقصَ فيها بوجه من الوجوه.

ولهذا قال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ في عبادة اللّه، المحسنين إلى عباد اللّه؛ فكلَّما كان العبد أكثر إحسانًا؛ كان أقرب إلى رحمة ربِّه، وكان ربُّه قريبًا منه برحمته. وفي هذا من الحثِّ على الإحسان ما لا يخفى».

٦ – الرزق بالعلم والحكمة:

قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٢٢).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أي: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ ﴾ يوسف ﴿ أَشُدَّهُۥ ﴾ أي: كمال قوته المعنويَّة والحسيَّة وصَلَحَ لأن يتحمَّل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة؛ ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾؛ أي: جعلناه نبيًّا رسولا وعالمًا ربانيًّا. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنُّصح فيها، وإلى عباد اللّه ببذل النفع والإحسان إليهم؛ نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علمًا نافعًا. ودلَّ هذا على أن يوسف وَفَّى مقام الإحسان، فأعطاه اللّه الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة».

وفي قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (القصص: ١٤).

---

(١) ص (٣٩٥).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير ذلك[1]: «﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ من القوَّة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ كملت فيه تلك الأمورُ، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ أي: حكمًا يعرف به الأحكام الشرعيَّة، ويحكُم به بين الناس، وعلمًا كثيرًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة اللّه، المحسنين لخلق اللّه؛ يعطيهم علمًا وحكمًا بحسب إحسانِهِم. ودلَّ هذا على كمال إحسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ».

٧ – التمكين في الأرض:

قال تعالى في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٦).

---

(١) ص (٦١٣).

وقال رحمه الله مفسرا لها[1]: «﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ في عيش رغد ونعمة واسعة وجاه عريض، ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا؛ ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة».

وفي قصة نوح عليه السلام يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي

(١) ص (٤٠٠).

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ (الصافات: ٧٥ – ٨٢).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآيات[1]: «يخبر تعالى عن عبدِهِ ورسولِهِ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أول الرسل أنَّه لما دعا قومه إلى اللّه تلك المدةَ الطويلة، فلم يزدهم دعاؤُهُ إلاَّ فرارًا؛ أنه نادى ربَّه، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٢٦). وقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٠)[2] فاستجاب اللّهُ له، ومدح تعالى نفسه، فقال: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ (الصافات: ٧٥) لدعاء الداعينَ وسماع تَبَتُّلِهِم وتضرُّعهم.

---

(١) ص (٧٠٥).

(٢) هذا دعاء لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه. وأما دعاء نوح: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (المؤمنون: ٢٦).

أجابه إجابةً طابقتْ ما سأل، نَجَّاه وأهلَه من الكرب العظيم، وأغرقَ جميع الكافرين، وأبقى نسلَه وذُرِّيَّته متسلسلين؛ فجميع الناس من ذُرِّيَّة نوح عليه السلام، وجعل له ثناءً حسنًا مستمرًّا إلى وقت الآخرين، وذلك لأنَّه محسنٌ في عبادة الخالق، محسنٌ إلى الخلق، وهذه سنَّته تعالى في المحسنين؛ أنْ يَنْشُرَ لهم من الثناء على حسب إحسانهم.

وفي قصة إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (الصافات: ١١٠).

وقد فسرها رحمه الله[1]: «﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، في عبادة الله ومعاملة خلقه أن نفرج عنهم الشدائد ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن».

(١) ص (٧٠٦).

٨ – الهداية والاصطفاء:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٤).

وقد فسرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ قائلاً[1]: «أخبر [سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ] أنه آتى ﴿ مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهو التوراة، ﴿ عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ لنعمته وكمالاً لإحسانه، ﴿ تَمَامًا ﴾ من أمة موسى؛ فإنَّ اللّه أنعم على المحسِنين منهم بنعم لا تُحصى من جُملتها وتمامها إنزال التوراة عليهم، فتمت عليهم نعمةُ اللّه ووَجَبَ عليهم القيام بشكرها.

﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ يحتاجون إلى تفصيله من الحلال والحرام والأمر والنهي والعقائد ونحوها، ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي:

(١) ص (٢٨٠).

يهديهم إلى الخير ويعرِّفهم بالشرِّ في الأصول والفروع، ﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصُلُ به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير، ﴿لَّعَلَّهُم﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبيِّنات عليهم، ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، فإنه اشتمل من الأدلَّة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، [ما][1] يوجب لهم الإيمان بلقاء ربِّهم والاستعداد له».

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (لقمان: ١ – ٣).

قال رحمه الله في تفسير الآيات[2]: «يشيرُ تعالى إشارةً دالَّةً على التعظيم إلى ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: آياتُهُ محكمةٌ صدرتْ من حكيم خبير.

---

(١) في (ب): «فإن الله عفوٌّ غفور».

(٢) ص (٦٤٦).

ومن إحكامها: أنَّها جاءت بأجلِّ الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالَّة على أجلِّ المعاني وأحسنها.

ومن[1] إحكامها: أنها محفوظةٌ من التغييرِ والتبديل والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها: أنَّ جميعَ ما فيها من الأخبار[2] السابقةِ واللاحقة والأمور الغيبيَّة كلُّها مطابقةٌ للواقع، مطابقٌ لها الواقع، لم يخالِفْها كتابٌ من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبيٌّ من الأنبياء، ولم يأتِ ولن يأتيَ علم محسوسٌ ولا معقولٌ صحيحٌ يناقِضُ ما دلَّتْ عليه.

ومن إحكامها: أنها ما أَمَرَتْ بشيء إلاَّ وهو خالصُ المصلحة أو راجِحُها، ولا نَهَتْ عن شيء إلاَّ وهو خالصُ

(١) في (ب): «من».

(٢) في (ب): «الأحكام».

المفسدة أو راجِحُها، وكثيرًا ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمتِهِ وفائدتِهِ، والنهي عن الشيء مع ذكرِ مضرَّتِهِ.

ومن إحكامها: أنَّها جمعت بين الترغيب والترهيب والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيِّرة، وتحتكمُ فتعملُ بالحزم.

ومن إحكامها: أنَّك تَجِدُ آياتها[1] المتكرِّرة كالقصص والأحكام ونحوها قد اتَّفقت كلُّها وتواطأت، فليس فيها تناقضٌ ولا اختلافٌ؛ فكلَّما ازدادَ بها البصير تدبُّرًا وأعمل فيها العقل تفكُّرًا؛ انبهر عقلُه وذهلَ لبُّه من التوافُق والتواطُؤ، وجزم جزمًا لا يُمْتَرى فيه أنه تنزيلٌ من حكيم حميدٍ.

ولكن – مع أنه حكيمٌ – يدعو إلى كلِّ خُلُق كريم وينهى عن كلِّ خُلُقٍ لئيم، أكثرُ الناس محرومون من الاهتداءِ به،

(١) في (ب): «آياته».

معرِضون عن الإيمان والعمل به؛ إلاَّ مَنْ وفَّقَه اللّه تعالى وعَصَمَه، وهم المحسنون في عبادة ربِّهم، والمحسِنون إلى الخلق.

فإنَّه ﴿ هُدًى ﴾ لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذِّرهم من طرق الجحيم. ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لهم تحصُلُ لهم به السعادةُ في الدنيا والآخرة والخيرُ الكثيرُ والثوابُ الجزيلُ والفرح والسرور، ويندفِعُ عنهم الضَّلال والشقاءُ.

٩ – الرزق بالذرية الصالحة:

قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٨٤).

قال رحمه الله[1]: «لما ذكر الله عبده وخليله إبراهيم عليه السلام

(١) ص (٢٦٣).

وذكر ما مَنَّ الله عليه به من العلم والدعوة والصبر ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة والنسل الطيب، وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة التي لا يدرك لها نظير!، فقال: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾، ابنه الذي هو إسرائيلُ أبو الشعب الذي فضَّله اللّه على العالمين، ﴿ **كُلًّا** ﴾ منهما ﴿ **هَدَيْنَا** ﴾ الصراطَ المستقيم في علمه وعمله.

﴿ **وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ** ﴾ وهدايته من أعلى أنواع الهدايات الخاصة التي لم تحصَلْ إلا لأفرادٍ من العالم، وهم أولو العزم من الرسل، الذي هو أحدهم.

﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ** ﴾ يُحتمل أنَّ الضمير عائدٌ إلى نوح؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن اللّه ذكر مع مَن ذَكَرَ لوطًا، وهو من ذُرِّيَّةِ نوح لا من ذُرِّيَّة إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه؛ ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم؛ لأنَّ السياق في مدحه والثناء عليه، ولوطٌ

– وإن لم يكن من ذُرِّيَّتِهِ – فإنه ممَّن آمن على يده.

فكان منقبةُ الخليل وفضيلتُه بذلك أبلغَ من كونه مجردَ ابن له، ﴿ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ ﴾ ابنَ داود، ﴿ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ﴾ ابن يعقوبَ، ﴿ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ ﴾ ابني عِمْران.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما أصلحنا ذُرِّيَّة إبراهيم الخليل؛ لأنَّه أحسن في عبادة ربِّه وأحسن في نفع الخلق، كذلك ﴿ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ بأن نجعلَ لهم من الثناء الصدق والذُّرِّيَّة الصالحة بحسب إحسانهم.

- **جزاء الإحسان في الأخرى:**

قال تعالى: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٨).

قال رحمه الله في تفسيره[1]: «لا جرم أن الله نصرهم وجعل

(١) ص (١٥١).

لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ من النصر والظفر والغنيمة.

﴿ وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ ﴾ وهو الفوز برضا ربهم والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكدات؛ وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق. ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء المؤمنين»[1].

وقال تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (المائدة: ٨٥).

وفسرها رحمه الله بقوله[2]: «﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ ﴾ أي: بما

(١) في (ب): «الموصوفين».

(٢) ص (٢٤٢).

تفوَّهوا به من الإيمان ونَطَقوا به من التصديق بالحقِّ، ﴿ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ كالنجاشيِّ وغيره ممَّن آمن منهم.

وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختارُ دينَ الإسلام، ويتبيَّن له بطلان ما كانوا عليه وهم أقربُ من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام».

وقال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (الزمر: ٣٤).

قال رحمه الله في تفسيرها[1]: «﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ﴾ من الثواب مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على

(١) ص (٧٢٤).

قلبِ بشرٍ؛ فكلُّ ما تعلَّقت به إرادتُهم ومشيئتُهم من أصناف اللذَّاتِ والمشتهياتِ؛ فإنَّه حاصلٌ لهم معدٌّ مهيَّأ. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يعبُدون اللّه كأنَّهم يَرَوْنَه؛ فإنْ لم يكونوا يَرَوْنَه؛ فإنَّه يراهم، المحسنين إلى عباد اللّه».

وقال تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ (الذاريات: ١٦).

قال رحمه الله مفسرا لذلك[1]: «﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ﴾ يُحتملُ أنَّ المعنى: أنَّ أهل الجنَّة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، قد قرَّت به أعينُهم، وفرحتْ به نفوسُهم، ولم يطلبُوا منه بدلا، ولا يبغون عنه حولا، وكلٌّ قد ناله من النعيم ما لا يطلب

(١) ص (٨٠٨).

عليه المزيد.

ويُحتمل أنَّ هذا: وصف المتَّقين في الدُّنيا، وأنَّهم آخذون ما آتاهم الله من الأوامر والنواهي؛ أي: قد تلقَّوها بالرحب وانشراح الصدر، منقادين لما أمر الله به بالامتثال على أكمل الوجوه، ولما نهى عنه بالانزجار عنه لله على أكمل وجه؛ فإنَّ الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا التي حقُّها أن تُتَلَقَّى بالشُّكر لله عليها والانقياد.

والمعنى الأول ألصقُ بسياق الكلام؛ لأنَّه ذكر وصفهم في الدُّنيا وأعمالهم بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ وهذا شاملٌ لإحسانهم بعبادة ربِّهم؛ بأن يعبدوه كأنهم يرونه؛ فإنْ لم يكونوا يرونه؛ فإنَّه يراهم، وللإحسان إلى عباد اللّه ببذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاهٍ أو نصيحةٍ أو أمرٍ بمعروف أو نهي عن منكرٍ، أو

غير ذلك من وجوه البرِّ[1] وطرق الخيرات، حتى إنَّه يدخُلُ في ذلك الإحسان بالقول والكلام اللَّيِّن والإحسان إلى المماليك والبهائم المملوكة وغير المملوكة»[2].

وفي موقف من الوصف لبعض النعيم التفصيلي الذي يعيش فيه أهل الإحسان قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المرسلات: ٤١ – ٤٤).

وقد فسرها رَحِمَهُ اللَّهُ[3] قائلا: «ذكر ثواب[4] المحسنين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم

(١) في (ب): «وجوه الإحسان».

(٢) في (ب): «والبهائم التي تملك والتي لا تملك».

(٣) ص (٩٠٥).

(٤) في (ب): «ثواب».

وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

﴿ فِي ظِلَٰلٍ ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية. ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرهما، ﴿ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي: من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ﴾ من المآكل الشهية، والأشربة اللذيذة ﴿ هَنِيٓـًٔا ﴾ أي: من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم[1] المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾».

(١) في (ب): «إلى جنات النعيم».

الخاتمة

أخي القارئ الكريم:

وبعد أن طفنا بهذه الآيات الكريمات في هذا الموضوع المهم (الإحسان)، ومعاني تفسيره من هذا الإمام المفسر، يتبين لنا مكانة هذا الخلق العظيم في الإسلام، وكيف اهتم القرآن الكريم بالحديث عن تفاصيله ومجالاته، داعياً المسلمين إليه، سواء كان ذلك مع خالقهم، أو مع مخلوقاته جل وعلا، وهذا يؤكد أن الإسلام دين حياة واجتماع؛ فهو يؤسس العلاقات الإنسانية، ويحيطها بسياج متين من هذه الأخلاق الرفيعة.

إن تعاليم هذا الدين لم تدع النفوس البشرية نهباً للأهواء والرغبات والأطماع والحظوظ، ولكنه شرع لها كل ما يخدم الحياة، ويزكي الأخلاق ويسمو بها.

وفي تعامل القرآن مع النفس وأهوائها فإنه يدعوها إلى ما ينقيها، ويدفعها للصلاح، ويحفزها على ذلك بالأوامر المشجعة والنواهي المحذرة، الدالة على الجزاء في الدنيا وفي الآخرة.

والأصل في الإحسان هو مراقبة الله ﷻ، في كل أمر، لذا فهو يشمل كل أعمال العبد، الاعتقادية والتعبدية والاجتماعية، العملية والقولية.

إن حاجة المسلمين اليوم عظيمة وملحة للعودة إلى معين القرآن الكريم ليستقوا منه منهج التعامل مع الله ﷻ، ومع الناس ممن حولهم على اختلاف أحوالهم ودرجاتهم.

نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، وأن نكون من أهل القرآن الحقيقيين المتأدبين بآدابه المتخلقين بأخلاقه، فإنهم أهل الله وخاصته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المحتويات

المحتوى	الصفحة
❁ المقدمة	٥
❁ ترجمة الشيخ السعدي	٨
❁ تعريف الإحسان	١١
❁ الأمر بالإحسان والحث عليه	١٣
❁ علو مرتبة الإحسان	٢١
❁ أولاً: علو مكانة المحسنين عند ربهم	٢١
❁ ثانياً: علو مكانة المحسنين بين الناس	٢٢
❁ ميادين الإحسان كما وردت في القرآن الكريم	٢٥
❁ أولاً: الإحسان مع الله	٢٥
❁ ١ – توحيده ﷻ	٢٧
❁ ٢ – الاستسلام لله ﷻ	٢٩

المحتوى	الصفحة
۞ ٣ – الاتباع بالحسنى	٣٤
۞ ٤ – التقوى والصبر	٣٦
۞ ثانياً: الإحسان مع الخلق	٣٩
۞ الإحسان إلى الوالدين	٤١
۞ الإحسان لذوي القربى واليتامى والمساكين والجار	٤٧
۞ الإحسان مع الزوجة	٥٠
۞ الإحسان في العشرة	٥٠
۞ الإحسان عند الطلاق	٥٢
۞ الإحسان بعد الطلاق	٥٥
۞ الإحسان إلى عموم الناس	٥٦
۞ الإحسان إلى المسيئين	٥٧
۞ الإحسان في الجهاد في سبيل الله	٦٠
۞ الإحسان أداء الديات	٦٤
۞ جزاء الإحسان	٦٩

المحتوى	الصفحة
۞ جزاء الإحسان في الدنيا	٧٣
۞ ١ – معية الله	٧٤
۞ ٢ – قبول العمل	٧٥
۞ ٣ – عدم ضياع الأجر	٧٦
۞ ٤ – رفع الجناح وحب الله	٧٧
۞ ٥ – القرب من رحمة الله – جل وعلا –	٨٠
۞ ٦ – الرزق بالعلم والحكمة	٨٢
۞ ٧ – التمكين في الأرض	٨٤
۞ ٨ – الهداية والاصطفاء	٨٨
۞ ٩ – الرزق بالذرية الصالحة	٩٢
۞ جزاء الإحسان في الأخرى	٩٤
۞ الخاتمة	١٠١
۞ المحتويات	١٠٣

تم بحمد الله

طبع على نفقة الفقير إلى عفو ربه
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين